مظاهر الاستجابة السلبية على التحدي الثقافي الإستعماري

تتمثل الاستجابة السلبية للتحدي الثقافي الإستعماري في نوعين، وهما مقاومة سلبية بالانغلاق ورفض كل ما هو وافد، وقد عم ذلك أغلب المجتمع الجزائري، خاصة المجتمع الريفي، أما النوع الثاني فهو استسلامي أو إنبهاري يدعو إلى التبني التام للثقافة الفرنسية ونموذجها الحضاري، لكنه يضم فئة صغيرة جدا .

1- المقاومة السلبية

كان المجتمع الجزائري يعيش انحطاطا حضاريا كما أسلفنا ذكره آنفا، وعندما دخل الاستعمار الفرنسي انغلق هذا المجتمع أكثر على ذاته، وكان يدعمه في ذلك نخبة تقليدية، تتمثل في المرابطين والطرقيين وبعض رجال الزوايا، وبالرغم من أن هؤلاء قد أبلوا البلاء الحسن في المقاومة المسلحة ضد الإحتلال، ابتداء من الأمير عبد القادر إلى الشيخ بوعمامة مرور بمقاومات لالا فاطمة نسومر والمقراني والشيخ الحداد وغيرهم ، لكن عرف الاستعمار الفرنسي كيف يدجن الكثير من هذه الطرق والزوايا في نهاية القرن التاسع عشر، واعتمد في رسم سياسات هذا التدجين على دراسات علمية خاصة لهذه الطرق الدينية والزوايا، ومنها دراسات كل من لويس رين وأكتاف ديبون وأوكزافيه كوبولاني، وبفعل سياسة التدجين الإستعمارية المدروسة، انتقل الكثير من الطرقيين ورجال الزوايا من مقاومين للاستعمار إلى خادمين له بعدة أشكال وأساليب، ومنها غرس الخرافة والدروشة في صفوف المجتمع بإسم الإسلام، ودفعه للانغلاق أكثر على نفسه، وكل هذا كان يخدم الاستعمار في آخر المطاف، لأنه يبعد بذلك المتنورين من الجزائريين عن الإسلام من جهة، كما يعطي للاستعمار ذريعة لرفض إعطاء الشعب الجزائري الاستقلال، لأنه لا يستحقه، بدعوى أنهم جمع المتخلفين، ويخاطب الإبراهيمي هذه النخبة التقليدية بقوله "ألا تدرون أن هناك محاضرات تلقى وخطبا تتلى وكتبا تطبع وتنشر وجمعيات تقوم بجمع ذلك وكل ذلك (للطعن) في الإسلام بكم وبأفعالكم واتخاذكم حجة عليه"، وهدفه من كل ذلك "حمل العالم المتحضر على إحتقاركم واعتباركم في الهمج الرعاع..فما أنحسكم على الإسلام"، ويحمل الإبراهيمي هؤلاء مسؤولية انتشار الإلحاد والمسيحية في صفوف بعض خريجي المدارس الفرنسية فيقول "أن من الأسباب التي مكنت الإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين مجانبة علماء الدين الجامدين ونفورهم منه" ولهذا فإن "القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد" وينطبق نفس الأمر على "التبشير المسيحي".

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا التيار الثقافي المنتشر بقوة في المجتمع، فأطلق عليهم البعض مصطلح "التقليديون" أو "المحافظون"، وسماهم آخرون بـ "المتزمتين" أو "المتطرفون"، أما اليوم فقد شاع مصطلح "الأصوليون" المأخوذ من المصطلح الأمريكي الأصل "Fondamentaliste"، والذي ترجم إلى " intégrisme". لكن للأسف لم تتوقف هذه التسمية الغربية عند هذه الفئة المحدودة، بل يسعى بعض الغربيين إلى تعميمها على كل المسلمين، وكي نتجنب ذلك نفضل استعمال مصطلح آخر هو "الكهفيون"، لأن الكثير من أتباع هذا التيار يشبهون رمزيا لا فعلا ومعتقدا أهل الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم، فكما هرب هؤلاء الفتية إلى الكهف خوفا على دينهم، فإن هؤلاء أيضا انغلقوا على ذاتهم، ورفضوا كل ما يأتيهم من الآخر، وذلك إعتقادا منهم أنهم يخشون على دينهم من الغزو الثقافي الاستعماري سابقا ومن العولمة الثقافية الغربية اليوم، ولم يعلم هؤلاء المنغلقين على الذات، أنهم بذلك سيفوتهم العصر كما فات أهل الكهف بـ 309 سنين، فأصبحوا عاجزين على مواجهة العصر الجديد بعد استفاقتهم، فلم يكن أمامهم إلا العودة إلى كهفهم للموت هناك، وهذا ليس معناه إنتقاصا لقديسي أهل الكهف، لكن فقط تشبيه رمزي لكل من يتوقف عن مسايرة الزمن ومختلف تطوراته ومنتجاته العلمية والفنية وغيرها معتقدا عن

حسن نية أنه يحافظ بذلك على دينه، ونعتقد أن القرآن الكريم، قد رمز لذلك عندما أشار إلى عدم قدرة فتيان أهل الكهف مسايرة الجديد الذي طرأ على المجتمع وعودتهم إلى الكهف ليموتوا فيه، ويبدو أنه ترميز لمصير كل أمة ترفض الجديد ومسايرة العصر ومنتجاته والتفاعل معها، وتنغلق على ذاتها بدل الإستجابة الإيجابية للوافد المتطور دون التخلي عن الدين والهوية، وقد كاد أن يكون هذا هو مصير الشعب الجزائري، لو اتبع هؤلاء التقليديون الذين أطلقنا عليهم "الكهفيون"، لو لم يقيض الله لهذه الأمة رجال الإصلاح الذين وقفوا بالمرصاد لهؤلاء، وخففوا من تأثيرهم على المجتمع في بدايات القرن العشرين .

لكن ليس هذا معناه القبول بالإندماج في الثقافة الغازية، كما فعل ما أسميناهم بـ "الاستسلاميين" أو "المنبهرين بالآخر"، فكان من المفروض في مثل هذه الحالات من التحديات أن تكون الإستجابة إيجابية، وليست سلبية، لأنه لم يجد الإنسان الجزائري أمامه إلا حلين كلاهما موت له ولهويته الثقافية، فإما أن يضيع هذه الهوية في حالة الإستسلام، فتندحر معها الأمة، أو يتحول إلى التزمت والإنغلاق القاتل المعرقل لأي عملية بناء حضاري وتطوير للهوية الثقافية وجعلها تتكيف مع مستجدات العالم المعاصر .

وقبل الحديث عن هؤلاء الاستسلاميين، علينا أن نوضح ونرد على تساؤل البعض، هل تنطبق هذه الصفة على كل الطرقيين آنذاك ؟، فنقول بأنه بإمكاننا استثناء البعض منهم الذين انخرطوا في الحركة الوطنية الاستقلالية ورفضوا الرضوخ للاستعمار كالرحمانيين في منطقة القبائل وبعض القادريين والدرقاويين في الغرب الجزائري، لكن ليس هذا الموقف من الإستعمار، معناه أن هؤلاء لم يكونو يحملون أفكارا تعرقل استعادة المجتمع الجزائري مسيرته الحضارية، وقد اعتبر المفكر مالك بن نبي أفكار هؤلاء الطرقيين كلهم دون إستثناء ومعهم كل أفكار هذا التيار الديني التقليدي، ب أنها "أفكار ميتة"، وأنها أخطر من الأفكار الوافدة التي سماها بالقاتلة، لأن "كل مجتمع يضع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي" أفكارا ميتة"، وتمثل خطرا عليه اشد من خطر الأفكار القاتلة، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون ما لم نجر عليها عملية تصفية الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بها من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه". كما علينا الإشارة أن الالتحاق بالاتجاه الوطني الاستقلالي، ليس معناه استجابة إيجابية وتقدمية للتحدي الثقافي الاستعماري، لأن أغلب القواعد الشعبية لهذا الاتجاه كانت ترفض أي فكرة وافدة عليه، حتى ولو كانت إيجابية، فمثلا تنظر إلى كل من يحمل ربطة عنق أنه متأورب يجب الحذر منه.

ويمكن أن يستثني البعض الطريقة العليوية التي كانت حديثة في أساليبها إلى درجة وصف بن عليوة بـ "الطرقي المعصرن" كما فعل أوغسطين بيرك، لكن الأساليب الحديثة ليس معناه حمل أفكار وذهنيات حديثة، كما لم تكن هذه الأشكال الحديثة لهذه الطريقة إلا محاولة منها للحد من نشاط الإصلاحيين وإدخال الغموض والالتباس حولهم وهم في بداية الطريق .

2- الاستسلاميون والإنبهاريون

يتمثل الاستسلاميون في الكثير من خريجي المدرسة الاستعمارية الذين انبهروا بالنموذج الفرنسي، فتحولوا إلى مستلبين أو منسلخين عن ذاتهم، وأصبحوا يرون أن إخراج المجتمع الجزائري من تخلفه الحضاري، يكمن في الارتماء في أحضان النموذج الحضاري الفرنسي خاصة والأوروبي عامة، وينقسم هؤلاء الاستسلاميون إلى ثلاث أصناف :

أ-دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي

دعا هذا الصنف من المثقفين إلى الاندماج التام في فرنسا ثقافيا وحضاريا حتىدينيا إن أمكن ذلك، وعملوا من أجل القضاء على كل ما يعرقل هذا الاندماج وعلى رأسها العقيدة الإسلامية، التي يرون فيها أنها "تلعب دورا أساسيا في عرقلة عملية الفرنسة في الجزائر"، مما

يتطلب محاربتها أو إضعافها على الأقل في النفوس، لأن "تقوية التدين لدى المسلمين والحفاظ على بعض المعتقدات الدوغماتية (في نظرهم)"، يعرقل ما يسمونه بـ "التطور الأخلاقي" للمسلمين الجزائريين.

وقد التأم هؤلاء الاستسلاميون حول جريدة "صوت المستضعفين" (Voix des humbles)، التي أسسها رابح زناتي عام 1922، وكان شعارها "بعيدون عن الأحزاب، بعيدون عن العقائد من أجل ترقية الأهالي عن طريق الثقافة الفرنسية"، وقد أدار هذه الجريدة سعيد فاسي منذ عام 1928 حتى اختفائها عام 1939، أما مؤسسها الأول رابح زناتي، فقد أنشأ جريدة أخرى هي "صوت الأهالي" Voix des indigènes في عام 1929، لكنها لم تستمر إلا سنتين، وهي تحمل نفس طروحات "صوت المستضعفين"، ويتمثل شعارها في "جريدة الإتحاد الفرنسي الإسلامي"، وحمل افتتاحية عددها الأول عنوان "يجب أن تصبح الجزائر فرنسية".

ويعتبر سعيد فاسي ورابح زناتي إلى جانب محند سعيد لشاني وطاهرات وبن حاج من أبرز دعاة الاستسلام للنموذج الثقافي الفرنسي، أو كما يسمونه هم "تحقيق الاندماج"، وقد ألف رابح زناتي عام 1938 كتابا بعنوان "المشكل الجزائري كما يراه أحد الأهالي"، يطرح فيه أساليب تحقيق الاندماج وأساليب القضاء على مختلف العوائق التي تقف في وجه هذا الإندماج وعدم إهتمام الجزائريين بالتعليم الفرنسي الذي يعتبره الطريقة المثلى لتحقيق هذا المبتغى.

ولا يختلف زميله سعيد فاسي عن هذا الطرح في كتابة "الجزائر تحت الرعاية الفرنسية ضد الإقطاعية الجزائرية" الذي نشره عام 1936، أين يتهجم على بعض الأعيان الجزائريين الذين شبههم بطبقة النبلاء في فرنسا عشية ثورة 1789، كما لم يخل كتابه أيضا من التهجم على علماء الدين الذين يعرقلون الاندماج بتقوية الدين في نفوس الجزائريين، فيشبههم برجال الكنيسة في أوروبا دون أن يميز بين التقليديين المتزمتين والإصلاحيين المتنورين.

ونجد إلى جانب هؤلاء صنف آخر، تخرج من المدرسة الاستعمارية ويحمل نفس أفكارهم وطروحاتهم في العمق، لكن يختلفون عنهم في أسلوب الطرح وذلك بأخذهم مبادئ الإسلام وقيم حضارته بعين الاعتبار، ولهذا سميناهم بـ "دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي"، فمن هم هؤلاء؟ .

ب-دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي

إذا كان دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي الذين تطرقنا إليهم آنفا ينتمون في أغلبهم إلى سلك المعلمين، فإن دعاة التبني النسبي لهذا النموذج هم في أغلبهم من المنتخبين أو المرشحين إلى مختلف المجالس التمثيلية، ومنها المجالس المالية والإقليمية والبلدية، لكنهم تلقوا تعليما عاليا في المدارس والجامعات الفرنسية، مثل محمد الصالح بن جلول وفرحات عباس والدكتور سعدان وعلي بومنجل ومحمد عزيز كسوس وغيرهم.

ويتميز هؤلاء عن دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي باعتزازهم بدينهم وهويتهم الأمازيغية العربية المسلمة، ورفضهم التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل الحصول على حق المساواة بالأوروبيين في الحقوق والواجبات.

وقد سعى هؤلاء إلى التوفيق بين الإسلام والنموذج الحضاري الفرنسي، أو كما قال فرحات عباس "خلق وفاق شرعي بين الإسلام وفرنسا"، أو بين ما يسميه بـ "وطننا الروحي (أي الإسلام) ووطنا الفكري (أي فرنسا)". والذي فسره زميله محمد عزيز كسوس بوضوح عندما قال "إن جيلنا فرنسي فكريا، إلا أنه يحتفظ بدينه ولغته وعاداته، ولكن لا يمكن أن يتصور أي شكل سياسي غير الشكل الذي تمثله فرنسا".